الرسالة

(أعمال الرسل ٢٠: ١٦–١٨، ٢٨–٣٦)

في تلك الأيام ارتأى بولسُ أن يتجاوزَ أفسس في البحر لئلّا يعرض له أن يُبطئ في آسية، لأنه كان يعجلُ حتى يكون في أورشليمَ يومَ العنصرة إن أمكنه* فمن ميليتُسَ بعثَ إلى أفسسَ فاستدعى قُسوسَ الكنيسة* فلمّا وصلوا إليه قال لهم* احذروا لأنفُسكم ولجميعِ الرعية التي أقامكم الروحُ القدس فيها أساقفةً لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمِه* فإني أعلم هذا أنّه سيدخل بينكم بعد ذهابي ذئابٌ خاطِفة لا تُشفق على الرعية* ومنكم أنفُسِكم سيقوم رجالٌ يتكلّمون بأمورٍ ملتوية ليجتذبوا التلاميذَ وراءهم* لذلك اسهروا متذكّرين أنّي مدّة ثلاث سنِين لم أكفُف ليلاً نهاراً أن أنْصحَ كلَّ واحدٍ بدموعٍ* والآن أستودعكم يا إخوتي الله وكلمة نعمتِه القادرة أن تبنيَكم وتمنحكم ميراثاً مع جميع القدّيسين* إني لم أشتهِ فِضّةَ أو ذهبَ أو

«يا أبتِ قد أتت الساعة»

يوم الأحد الذي يسبق أحد العنصرة، تُعَيّد كنيستنا المقدَّسة لآباء المجمع المسكوني الأول، أي أول مؤتمَر لاهوتي التأمت خلاله الكنيسة من أقطار الأرض للبحث في مسائل إيمانية تتعلّق بشخص المسيح إلهنا. في ذلك المجمَع ثبَّت الآباء، بنعمة الروح القدس، الإيمان بالمسيح يسوع ربَّاً وإلهاً متساوياً بالجوهر مع الآب، ومتجَسِّداً من مريم العذراء إنساناً تاماً، ووضعوا الجزئين الأوَّلَين من دستور الإيمان، أي حتى عبارة «الذي لا فناء لمُلكه». لن نخوض هنا في حيثيات هذا المجمع المقدَّس وتفاصيله، بل في النصّ الإنجيلي الذي انتقته الكنيسة ليوم الأحد هذا، علّنا نُظهِر ارتباط معانيه بالحدث.

العدد ٢٤ / ٢٠١٦

الأحد ١٢ حزيران

أحد آباء المجمع المسكوني الأول

تذكار القديسَين أنوفريوس

وبطرس الآثوسي

اللحن السادس

إنجيل السَحَر العاشر

هذا المقطع الإنجيلي مأخوذ مما يُعرَف بـ«صلاة يسوع الوداعية»، التي فيها حاور يسوع الآب السماوي بحميميّة الإبن، أمام تلاميذه قبل أن يخرج بهم إلى البستان حيث سوف يُقبَضُ عليه. قبل البدء بالصلاة الوداعية ختم يسوع وصيَّته للتلاميذ بتشديدهم قائلاً «قد كلَّمتكم بهذا ليكون لكم فيَّ سلام. في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا: أنا قد غلبت العالم» (يو ١٦: ٣٣). للوهلة الأولى قد تسبب هذه الآية التباساً يوحي بأنه مَنْ أراد أن يكون في المسيح عليه حُكماً أن يترك العالم. هذا خطأ فالمسيح لم يأت إلى العالم، صائراً إنساناً، لينقُلنا من هذا العالم إلى مكان آخر. ولا لِيُنشئ جَماعة تُكَفِّر العالم وتبتعد عنه. بل ليهدم «سياج العداوة» الذي كان قائماً بين العالم المخلوق وخالقه. «إبن الله صار إنساناً لكي يصير الإنسان إلهاً»، يقول آباؤنا القديسون. أي لكي يتقدَّس الإنسان حيث هو، بمقدار ما يُتحِد ذاته بالمسيح، فيتقَدَّس العالم به. أما هذا الـ«تضادّ» – إذا جاز التعبير – الذي توحي به الآية فهو إذاً ليس بين المسيح والعالم بل بين شريعة المحبة حتى البذل الكامل، التي هي «ناموس المسيح» (غلا ٢: ٦)، وبين شريعة الأنانية والبغض وفقدان الشعور بالآخر وغيرها من الآفات، التي هي

ناموس هذا العالم. وبقوله «قد غلبت العالم» (أي الغلبة قد تحققت بالفعل) لا يتكلّم ربنا يسوع عن ذبيحته الخلاصية المُزمِعة أن تتمّ، بل عن أنّه بمجرَّد أن تَجَسَّد في العالم بَثَّ فيه من ألوهته. أي أزال الحواجز والموانع بين بَشريَّة الإنسان وقداسة الله. ما عاد الإنسان «محكوماً» بالخضوع لـ «ناموس هذا العالم» بل عادت له حرّية الاختيار.

«رفع عينيه نحو السماء»، والسماء ترمز إلى مكان الحَضرة الإلهية وإن كان الله بالفعل حاضراً في كل مكان. لو لم يكن لهذا المشهد أهمية لما ذكره الإنجيلي، إذ معروف أن النصوص الإنجيلية لا تتوخّى السرد الروائي. إذا تأمّلنا جيداً نصَّ الصلاة الوداعية، الذي سمعه الرسل ونقلوه إلينا، نلاحظ حميميّة الحوار بين الإبن وأبيه. رفع العينين وحميميّة اللغة، في هذا النص، هما الدعوة لنا لنرتقي إلى هذا المستوى من العلاقة مع الله، مستوى الشركة السرية بين الابن وأبيه. بالنسبة للمسيحي كل ما هو دون هذا المُستَوى تقصير، فالمعمودية أشرَكَتْنا بالمسيح اشتراكاً كُلّياً.

أولى كلمات يسوع إلى أبيه توحي بمَوعد مُتَّفَق عليه مُسبَقاً بينهما.. «يا أبت قد أتت الساعة»، يقول يسوع. وهو بالفعل كذلك، موعد اعتلان المواعيد الإلهية بقوّة: إعتلان محبة الله التي لا حدَّ لها للعالم كما أنبأ عنها يسوع من قَبل إذ قال «هكذا أحبَّ الله العالم حتى بَذَلَ ابنه الوحيد، لكي لا يهلك من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو ٣: ١٦). وإعلان حقيقة طبيعة الابن إلهاً تاماً وإنساناً تاماً معاً، كما سوف تظهر بقوة بذهابه إلى ذلّ الموت طائعاً، ليغلب الموت مرة وإلى الأبد بقيامته من القبر ظافراً. واعتلان مجد الإبن بهذا التدبير الخلاصي يُظهر مجد الآب أيضاً: «مجّد ابنك ليمجّدك ابنك أيضاً». هو أيضاً موعد إنجاز التدبير الخلاصي الذي يبدأ بإرسال الآب لابنه إلى العالم فادياً ومُخلِّصاً، وعودة الإبن إلى أبيه بعد القيامة مُصعداً الطبيعة البشرية التي مَجَّدَها. كُلّ ما قاله الأنبياء قديماً يتحقَّق الآن علانية وبقوة: «لذلك رفعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل اسم، لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب»، يقول الرسول بولس مفسّراً (في ٢: ٩–١١). حتى تساوي الإبن بالآب بالطبيعة والجوهر صار ظاهراً إذ مجد الآب ومجد الابن لا يستعلن أحدهما دون الآخر. ومع هذا، واضح لنا من جهة أخرى أن المَسيح لا يطلب لنفسه في العالم مجداً، بل فقط مجد أبيه السماوي: «لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة، أيها الآب مجّد اسمك. فجاء صوت من السماء: مجّدت وأمجّد أيضاً» (يو ١٢: ٢٨).

في ما يلي من صلاته الوداعية نرى يسوع يردُّ كل عمله الخلاصي إلى تمجيد الله أبيه. «أنا قد مجّدتك على الأرض، قد أتممت العمل الذي أعطيتني لأعمله... قد أعلنت اسمك للناس». هذه أيضاً لم يكن ليوردها الإنجيلي لو لم يكن لنا فيها رسالة: أنت لا يمكنك أن تتقدّس بالمسيح (فعلاً لا شكلاً) ما لم تَصِرْ مثل المسيح الذي هو «صادق وليس فيه ظلم»، ولا يطلب إلا «مجد الذي أرسله» (يو ٧: ١٨). هذا يعني أن لا يطلب المؤمن إلا مجد الله وأن لا يَدَع شريعة من شرائع العالم تطغى على شريعة الإنجيل. أن يسلك في يومياته طائعاً لله كطاعة المسيح. لباسَ أحدٍ* وأنتم تعلمون أنّ حاجاتي وحاجات الذين معي خَدَمتْها هاتانِ اليدان* في كلّ شيءٍ بيّنتُ لكم أنّه هكذا ينبغي أن نتعبَ لنساعد الضّعفاء وأن نتذكّر كلامَ الربّ يسوع. فإنّه قال إنّ العطاءَ هو مغبوطٌ أكثر من الأخذ* ولمّا قال هذا جثا على ركبتيه مع جميعهم وصلّى.

الإنجيل

(يوحنا ١٧: ١–١٣)

في ذلك الزمان رفع يسوعُ عينيهِ إلى السّماء وقال يا أبتِ قد أتتِ الساعةُ. مجّدِ ابنك ليمجّدك ابنُك أيضًا* كما أعطيتَهُ سلطانًا على كلّ بشرٍ ليُعطيَ كلَّ من أعطيتَهُ لهُ حياةً أبديّة* وهذه هي الحياةُ الأبديّةُ أن يعرفوك أنتَ الإلهَ الحقيقيّ والذي أرسلتَهُ يسوعَ المسيح* أنا قد مجّدتُك على الأرض. قد أتممتُ العملَ الذي أعطيتَني لأعملَهُ* والآن مجّدني أنت يا أبتِ عندك بالمجدِ الذي كان لي عندَك من قبلِ كونِ العالَم* قد أعلنتُ اسمَك للناسِ الذين أعطيتَهم لي من العالَم. هم كانوا لك وأنت أعطيتَهم لي وقد حفِظوا كلامك* والآن قد علِموا أنّ كلّ ما أعطيتَهُ لي هو منك* لأنّ الكلامَ الذي أعطيتَهُ لي أعطيتُهُ لهم. وهم قبِلوا وعلموا حقّاً أنّي

منكَ خرجتُ وآمنوا أنّك أرسلتني* أنا من أجلهم أسأل. لا أسألُ من أجلِ العالم بل منْ أجل الذين أعطيتَهم لي. لأنّهم لك* كلُّ شيءٍ لي هو لك وكلُّ شيءٍ لكَ هو لي وأنا قد مُجّدتُ فيهم* ولستُ أنا بعدُ في العالم وهؤلاء هم في العالم. وأنا آتي إليك. أيّها الآبُ القدّوس احفَظهم باسمِك الذين أعطيتَهم لي ليكونوا واحدًا كما نحن* حين كنتُ معهم في العالم كنت أحفظُهم باسمك. إنّ الذين أعطيتَهم لي قد حفِظتُهم ولم يهلِك منهم أحدٌ إلاّ ابنُ الهلاكِ ليتمّ الكتابُ* أمّا الآن فإنّي آتي إليك. وأنا أتكلّمُ بهذا في العالمِ ليكونَ فرحي كاملًا فيهم.

تأمل

«كلُّ شيء لي هو لك وكلُّ شيء لك هو لي».

فيما نعترف بأنّ ربّنا يسوع المسيح هو نفسه إله كامل وإنسان كامل، نقول بأنّ له هو نفسه كلّ ما للآب ما عدا عدم الولادة، وأنّ له كلّ ما لآدم الأول ما عدا الخطيئة وحدها، ذلك أنّ له جسداً ونفساً ناطقةً وعاقلة، فإنّ له هو نفسه – في مقابل الطبيعتين الإثنتين – الخواص الطبيعية لكلّ من الطبيعتين الإثنتين: أي مشيئتين طبيعيتين إثنتين، إلهيّة وإنسانية. وفعلين طبيعيين إثنين، إلهي أكثر من ذلك، إذا عُدنا إلى العظة على الجبل التي سمّاها آباؤنا ناموس العهد الجديد، نرى ربنا المسيح يفتتح سلسلة وصاياه الإلهية بقوله: «فليُضِئ نوركم هكذا قدّام الناس، لكي يروا أعمالَكم الحَسَنة، ويمَجِّدوا أباكم الذي في السموات» (متى ٥: ١٦).

هذا ويبقى أن المسيح بتدبيره الخلاصي «إلى خاصّته جاء وخاصّته لم تقبله» (يو١: ١٠)، والمعني بـ«خاصّته» هنا هو الخليقة التي من أجلها كلها أتى، ولكن لم تقبله كلّها بعد. إبن الله الوحيد «ظهر بالجسد، تبرَّر بالروح، تراءى لملائكة، كُرز به بين الأمم، أُومِنَ به في العالم، رُفع في المجد»، يقول القديس بولس (١ تيمو٣: ١٦). لكن هذه الـ«أومن به في العالم» لم تكتمل بعد إذ لم تشمل العالم كلّه. المسيح لم يأتِ ليخلّص جماعة ما في زمان ومكان محدَّدَين، بل الخليقة بأسرها على امتداد الأمكنة والزمان. كُثُر من آبائنا القديسين يقولون أن المسيح سيبقى وكأنّه في النزاع على الصليب، حتى يخلِّصَ كل إنسان. إذذاك يكتمل إعلان مجد المسيح ويختتم التاريخ. وكأنّهم بهذا يقولون لنا: كلّما حقّق إنسان خلاصه بالمسيح، قصَّر من وقت نزاع المسيح وسرَّع في اكتمال إعلان مجده.

الإيمان بين القلب والعقل

رتَّبت الكنيسة المقدَّسة في الأحد الواقع بعد خميس الصعود أن نعيِّد لآباء المجمع المسكوني الأول الذي انعقد في القرن الرابع ميلادي. يُعرف هذا المجمع بمجمع نيقية على إسم المدينة التي عُقِد فيها، في تركيا الحالية، وقد حضره القديس قسطنطين الكبير. ما يُلفت في هذا المجمع أنَّ علامات الاضطهادات والعذابات كانت ظاهرة جلياً على أجساد معظم الآباء الذين أتو من كنائس العالم ليشهدوا للمسيح الحي والغالب على الدوام. فأعضاؤهم المشوّهة أو المبتورة وآثار الجروح والضرب والجلدات شهادةٌ على أنَّ الإيمان الحيّ الذي دوّنوه في نيقية (أي الجزء الأول من دستور الإيمان أؤمن بإله واحد... لا فناء لملكه) كان محفوظًا في قلوبهم وعقولهم، وأجسادهم التي احتملت العذابات بصبر.

الهدف الأساسي لالتئام المجمع هو مواجهة هرطقة آريوس. فآريوس الذي ولد وتربّى في ليبيا، وصار فيما بعد شماساً فكاهناً في الإسكندريَّة، أنكر ألوهيَّة الإبن، أي يسوع المسيح، واعتقد بأنَّه كان هناك وقت لم يكن الإبن موجودًا فيه؛ أي أنَّه غير أزلي؛ وأعتبره أيضاً مخلوقاً من العدم وغير مساوٍ للآب في الجوهر وأدنى رتبة في الألوهيَّة من الآب. كما أعلن أن القوى غير المخلوقة التي للإبن مثل المجد والخلق... هي بحسب النعمة وليس بحسب الطبيعة. بالإضافة إلى إنكاره لعقيدة الثالوث إذ يصبح الإبن عندها مخلوقاً عادياً وليس إلهاً.

كثيراً ما نقع نحن خطأً طبعاً في هذا الفخ عندما نتحدَّث باللهجة المحكيَّة عن ميلاد الربَّ يسوع المسيح مع بعضنا البعض أحياناً أو حتى عندما نخبِّر أولادنا الصغار، فنستخدم عبارة «خُلق» مكان «وُلد». فعندما نقول أنَّ يسوع قد خُلق، نقع في المشكلة التي وقع فيها آريوس وبالتالي، نحن نقول أن يسوع قد خُلق من العدم أي أنَّه لم يكن موجوداً من قبل. المسيح ولد ولم يُخلق. هو أزليٌّ كان منذ البدء: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان

عند الله وكان الكلمة الله» (يو١:١).

أمَّا اليوم فبدعة شهود يهوه هي بحدّ ذاتها امتداد لهرطقة آريوس، الآريوسيَّة الحديثة، التي بدأت في الولايات المتحدة عام ١٨٧٢ مع تشارلز راسل. يرفض أتباع شهود يهوه ألوهيَّة الربّ يسوع المسيح ومساواته للآب في الجوهر، وفي إنكارهم لبنوَّة يسوع لله يجعلون من الرب يسوع مجرد إنسان عادي من لحم ودم. كما يعلّمون أيضاً بأنَّ الروح القدس هو مجرد تعبير عن قوَّة الله.

إنَّ القاسم المشترك بين آريوس وشهود يهوه لا يقتصر فقط على ما يؤمنون به. فكلاهما جعلا من المنطق البشريّ والعقل فقط الركيزة الأساسيَّة في الحديث عن ألوهيَّة الربّ يسوع المسيح. الإيمان يأتي من القلب وليس من العقل «يا بني أعطني قلبك ولتلاحظ عيناك طرقي» (أم ٢٣: ٢٦). عندما يبرد القلب من الإيمان يصبح فارغاً فتتسلل إلى داخله الأرواح الشريرة، عندها يبدأ العقل بطرح أسئلة غريبةٍ حول اللاهوت، يجاوب عليها بالطريقة التي تناسبه وتشبع رغباته. يقول أحد اللاهوتيين أن «الله لا يحركك إذا بقي خارجاً عنك. إنَّه يحركك إذا دخل إليك بالنعمة» وهذا لا يتم إلاَّ إذا آمنَّا بالله إيماناً قويماً لا عيب فيه.

يحوِّل العقل معظم الأمور إلى مسائل حسابيَّة علميَّة، يحاول من خلالها الإجابة على الإشكاليات التي يطرحها فتأتي الأجوبة على ما يستطيع الإنسان فهمه وإدراكه منطقياً. كلَّ شيء يفوق قدرته إمَّا يعيد توليفه بطريقة أخرى وإمّا يرفضه رفضاً قاطعاً. هذا الأمر لا ينطبق بالمطلق على المسائل اللاهوتيَّة الإيمانيَّة.

إيمان الكنيسة لم يولد من مجهول بل من خبرة الرسل مع الرب يسوع المسيح وهذا ما تناقلته عبر الأجيال «الذي كان من البدء الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة. فإنَّ الحياة أُظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبديَّة التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا» (١يو١: ١ – ٢). هذه الخبرة مصدرها القلب الملتهب بالعشق الإلهي. «إنَّ الإنسان إنَّما ينظر إلى العينين، وأمَّا الربُّ فإنَّه ينظر إلى القلب» (١صم ١٦: ٧). الله «فاحص القلب مختبِر الكلى» (أر ١٦: ١٠) يكشف الكذَّاب والمخادع: «لأنَّ هذا الشعب قد اقترب إليَّ بفمه وأكرمني بشفتيه وأمَّا قلبه فأبعده عني» (إش٢٩: ١٣). إذاً الإيمان «لا يأتي من الجهل ولا يأتي من الثقافة، له شركة مع القلب يعسر تبيانها عقلياً» يقول أحد اللاهوتيين.

على المؤمن أن يوفِّق بين القلب والعقل «فليس من إنسان يستطيع أن يرمي العقل، ولا من إنسان يستطيع أن يرمي القلب، فهذان متعانقان». لقد منحنا الله عقلاً كي نميِّز بين ما هو مرضٍ لله وبين ما هو غير ذلك، ما هو منَ الله وما هو من الشرير. يقول الإنجيلي يوحنا: «امتحنوا الأرواح هل هي من الله لأنَّ أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم» (١يو٤: ١). إن الإيمان المسيحي هو إكتشاف متجدد على الدوام لسر يسوع المسيح القائم من بين الأموات «لا تكن غير مؤمنٍ بل مؤمناً» (يو٢٠: ٢٧).

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb

وإنساني. وحريّتين طبيعيتين إثنتين، إلهيّة وإنسانيّة. وحكمةٌ ومعرفةً إلهيتين وإنسانيتين. فهو مساوٍ لله الآب في الجوهر ويشاء ويفعل بحرية الله. وبما أنه مساوٍ للإنسان في الجوهر، فهو يشاء ويفعل بحريّة كالإنسان نفسه. فالعجائب عجائبه والآلام آلامه...

تُعلّمنا الكنيسة الجامعة الرسولية أنّ مع وجود الآب كان الإبن الوحيد الجنس موجوداً منه بلا زمن ولا انفعال ّمما يفوق الإدراك، الأمر الذي يعلمه إله الجميع وحده. فكما أنه مع وجود النار يكون النور الصادر منها، ولا تكون النار أولاً وبعد ذلك النور، بل يكونان معاً. وكما أن النور الصادر من النار مولود منها دائماً ولا يفارقها البتة، كذلك يولد الإبن أيضاً من الآب دون أن يفارقه البتة، بل يكون فيه دائماً. لكنّ النور المولود من النار بلا افتراق والباقي فيها دائماً، ليس له أقنوم خاص به من قِبَل النار، لأنه صفةٌ للنار طبيعية. أما إبن الله الوحيد الجنس المولود من الآب بلا انفصال ولا افتراق، والثابت فيه دائماً، فله أقنومه الخاص من قِبَل الله.

القديس يوحنا الدمشقي